المقتبس

تاريخ الحضارة

مترجم عن الافرنسية

علم الكلام — يطلق علم اللاهوت خلال القرون الوسطى على العلم الرئيسي [illegible] والمدرسة اللاهوت في جميع الكليات المقدم على سائر المدارس) وقد قام على الفلسفة خاصة [illegible] العقول العامة وكان لمشاهير علماء القرون الوسطى أمثال ألبرتوس الكبير وتوما ودونس سكوت ، وعلم الكلام الصحيح [illegible] في الفلسفة ويسمى علم المدرسة او علم الكلام سوى فلسفة مطبقة على اللاهوت فكل المتكلمين يعتقدون بما قررته الكنيسة كما قال [illegible] اسقف [illegible] لا يجب [illegible] اولا [illegible] يجب ان يعقل ولا [illegible] حقيقة العقل ليست على تناقض مع حقيقة الايمان المسيحي ، ثم ان علماء الكلام درسوا فلسفة أرسطو [illegible] من ترجمات رديئة باللغة اللاتينية نقلت من ترجمات عربية وقد [illegible] بعضه فكانوا يعتمدون الى [illegible] طرق البرهان يحلون المسائل التي [illegible] الكنيسة ، وهذه المسائل قد تكون دقيقة مثل قول [illegible] هل [illegible] ان يعرف من الاشياء اكثر مما يعلم ، وقال دونس سكوت اذا كانت العصمة في ان يكون .. [illegible] في [illegible] الشخص الاول في اللاهوت ، وقال [illegible] اذا كان [illegible] المسيح [illegible] الى الحياة وعليه جروح ، وهل اذا كانت الحمامة التي ظهر

قبيل الروح القدس هي حيوان حقيقي .

وكان هذا الكلام من أكبر العوامل فقد مات دونس سكوت (الدكتور المدقق) في المدرسة وخلافه وقد ألف ١٢ مجلداً من قطع النصف وطمس سكوتوس (الدكتور العام) في كتابه [illegible] الفكر [illegible] الوسطى وعلى مختصر كتاب المعول في اللاهوت للمدارس الإكليركية الكاثوليكية . واضطرم [illegible] قبل القرن الرابع عشر الصناعة العقلية وهي أداة البرهان يأتي بها على جميع المسائل بدون استخدام العقل . والمتكلمون لا يستخدمون إلا البرهان الاستقرائي دون ملاحظة الحوادث فلم يزيدوا شيئاً على علم البشر وظلت فلسفتهم كما يقولون في القديم خادمة علم اللاهوت .

عوائد الكتب والأدب الفني — كان في الأديار العظمى أبداً بعض الرهبان لاعمل لهم إلا استنساخ الكتب وتزيينها ويتقنون المخطوطات التي استعاروها أحياناً من غيرها . وعلى هذه الصورة انتسخت عوائد الكتب في بعض جهات من الغلبات (فيكتوري (٤٠٠) وفي سان جرول (٣٠٠)) لأن الكتب كانت نادرة [illegible] وجميع الكتب كانت لاتينية ومعظمها كتب عبادة وتسابيح من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة وكتب الطقوس وحياة القديسين وكتب القسوس [illegible] [illegible] لا يستعملون غير هذا النوع من الكتب [illegible] كتب شيشرون وكتب فرجيل لأنهم في سلامة [illegible] بعض الأديار التي غلب عليها حب الأدب إلا كثيراً من المؤلفات اللاتينية الأخرى مثل مصنفات شيشرون وفرجيل وهوراس و [illegible] والعربية [illegible] .

كتب رجال الإكليروس كلاً باللاتينية وبعض الأديار والقسس في القرون الوسطى كثيراً من المؤلفات لأنفسهم وكانوا يؤلفون في الأدب والشعر ورسائل في اللاهوت والتواريخ يسردون فيها جميع أحداث العالم منذ الخليقة إلى زمن المؤلف ووقائع مؤلفة من أخبار [illegible] الكتب [illegible] لم تذكر فيها أخبار العادات والأوبئة والمجاعات والحروب وموت الملوك أو الأمراء . كل ذلك باللغة اللاتينية إلا [illegible] [illegible] الاستشهادات [illegible] المبادئ اللاتينية . وكان رجال الإكليروس

[illegible] حياة النساك [illegible] [illegible] [illegible] ولا يطيعون الأوامر التي يلقونها، وكانت تجري في آدابهم بعض الأفكار [illegible] بها بقوة وبعض صحف حية في [illegible] ولكن [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] الأدباء في

أدب العامي — إن عامة [illegible] والقسس الذين لا يعرفون اللاتينية قد [illegible] لم تكن [illegible] العادية لغة الرومان (المشتقة من اللاتينية)، وهكذا نشأ في أواخر القرن الحادي عشر الأدب الجديد [illegible] الشعر كما [illegible] في أوائل الأدب [illegible] هؤلاء الشعراء [illegible] وهم الذين يتجولون في شمالي فرنسا و[illegible] [illegible] [illegible] ويسمون شعراء الجنوب [illegible] وهم يؤلفون بلغة أقاليم البروفنس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وصناعة [illegible] الشعر ويسمونهم المتجولين كانوا [illegible] إلى الأسواق الكبرى حيث [illegible] أحيانا [illegible] [illegible] قصور [illegible] [illegible] في [illegible] الأعياد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأشعار ذات القافية أو النثرية [illegible] [illegible] الأدب [illegible] [illegible] [illegible] (اللغة [illegible]) لأنها كانت لغة [illegible]. وكان شعر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فقط [illegible] [illegible] أو [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الحروب والغارات [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] وكان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في مخطوطات [illegible] من القرن الثاني عشر [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] العصور الوسطى سواء أكانت باللغة [illegible] أو اللغة اللاتينية [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] لم يكن شعراء القرن الثاني عشر أقل [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] شعراء [illegible] [illegible] [illegible] الشعراء في القرون [illegible] [illegible] في القصائد [illegible] [illegible] ثم حدثت القصائد ذات العشرين والثلاثين [illegible] [illegible] [illegible] الحكم على [illegible] [illegible].

[illegible] [illegible] [illegible] المسيحيون في القرن الرابع [illegible] على [illegible]

الناس عبادتهم كانوا يجتمعون في كنائس كبرى وهي قاعات عالية مسطحة السقف تكون محكمة مدنية وسوقاً للتجار في آن واحد فكان المؤمنون يجتمعون في ساحة المجاز أو الصحن وهو مقسوم إلى رواقات عليها صفوف من السواري ومحل المحكمة على شكل نصف دائرة وآخر الصحن كان بمثابة محراب يجلس فيه الأسقف والقسس .

وقد حفظت الكنائس المسيحية زمناً اسم البازيليك (البيعة الكبرى) وصورتها أي تتألف من صحن كبير على جانبيه صحنان صغيران ومحراب يسمى عقداً يشبه العقد الذي يغطيه ثم تصوروا أن يبنوا في مقدم الكنيسة برجاً أو برجين يجعلون فيه الأجراس وأن يستعيضوا عن السواري الخفيفة بدعائم متينة وأن يجعلوا بدلاً من خشب السقف المسطح المعرض للحريق بناء من حجر على شكل عقد وبذلك نشأت هندسة جديدة سميت الرومانية لأنها نشأت في بلاد الرومان . فقد بدأت في إيطاليا الشمالية وجنوب فرنسا في القرن الحادي عشر ولكنها انتشرت في جميع أوربا الغربية والكنائس الكبرى التي في ورمس وسبير في ألمانيا هي كنائس رومانية ولا يزال كثير من القرى في وادي الرون وفي أوفرنيا ونورمنديا كنائس قديمة في الشكل الروماني لأنه لم تمكنها حالتها المالية من إبدال ذات القديم بطرز البناء الجديد

الهندسة الرومانية — كانت الكنائس الرومانية قد بنيت في بلاد مختلفة وعصور متطاولة على يد مهندسين لم تجمعهم أصولاً واحدة في الهندسة فقد بعد الشبه بينها ولذلك نرى لأوربا هندسة خاصة بها ومثال ذلك نورمانديا وألمانيا . ولكنها كلها ترجع إلى مبدأ عام وهو أن الجزء الأكبر رتبة أي الواجهة متجهة نحو الغرب وقبة الجرس (وأحياناً تكون قبتان) تقوم فوق الواجهة وتبنى القبوة محدودة وتشرف على الكنيسة بأسرها والرتاج أو الباب الأعظم يكون في أسفل الكنيسة ومنه يدخل المصلون وهو مغشى بالنقوش وأحياناً لا يبلغ الداخل الرتاج قبل أن يجتاز دهليزاً وهو ذو سواري في مقدم البناء والرتاج يؤدي إلى صحن الكنيسة الأعظم في الوسط وعلى الجانبين عدد مثله تقسمها أروقة تحمل حوائط الداخلية التي تختم في أعلى الداخل طاقات منها عقد ومن كل جهة من الصحن الأكبر صف الأعمدة والحائط الخارجي من الكنيسة صحنان صغيران وسميا جانبيين أو واطئين فالصحن الكبير والجانبيان

والطاق يتصل بينها رواق عرض عال [illegible] في كل طرف من أطرافه برتاج منعطف يليه رتاج أو [illegible] (وأحيانا [illegible] الخورس) ثم يكون الخورس على شكل مدور على خط مستقيم مع الصحن الأعظم ويكتنفه من جانبيه بعض الردهات والصحنان الجانبيان يمتدان على جانبيه ويكتنفهما جناحان من البناء وكل هذا الشطر من البناء الذي يسمونه الرأس مغطى بقبة.

وتحت الخورس غرفة معقودة وهي ناووس فيها [illegible] القديسين وأضلاع الكنيسة [illegible] في [illegible] الصحنين الجانبيين أو الصحن الأعلى وقد [illegible] في الخارج لكي [illegible] الحوائط الخارجية [illegible] عقود [illegible] الكنيسة [illegible] الصحنين الجانبيين وقباب الخورس كلها وأقبيتها ونوافذها على صورة معقودة أي على شكل نصف دائرة مثل الأبنية الرومانية القديمة وقد يجعل شكل الكنيسة على صورة الصليب [illegible] الذي هو عبارة عن ثلاثة [illegible] وهذه الشكل مؤلف من الصحن [illegible] من [illegible] الجانبين وقد [illegible] والرواق العرض [illegible] ذراع الصليب والرأس [illegible] وهو أعلى [illegible] من الكنيسة [illegible] فيه رجال الدين ويقام فيه الحفلات الدينية.

هندسة [illegible] — [illegible] منتصف القرن الثاني عشر [illegible] العقود المدببة [illegible] على نمط [illegible] وقد أحدث هذا الاختراع الذي [illegible] وأعظم انقلابا في هندسة الأبنية. [illegible] في الكنيسة [illegible] الصحن والرأس [illegible] الخورس [illegible] ذلك [illegible] المعقودة كلها على نمط [illegible] الأعلى صورة [illegible] الصحن الأوسط إلى [illegible] والصحنان الجانبيان [illegible] جانبيه. [illegible] التي كانت تمسك العقود [illegible] من العمد [illegible] وجعل فوق [illegible] عقود خارجية [illegible] ([illegible]) [illegible] فوق الصحن [illegible] حائط الصحن الأكبر الأوسط من جهة وإذا كانت العناصر [illegible] على هذه الصورة [illegible] أن تكون [illegible] التي [illegible] في الكنيسة

الرومانية يشغل أكثر من نصف الحائطين وجعلت مكانه نوافذ فغدت النوافذ القسم الأكبر من الكنيسة وهي على ضروب منوعة منها ما هو على شكل [illegible] تستعمل لقباب الأجراس خاصة وهي نوع عظيمة تقسمها عمدات طويلة رقيقة إلى قسمين والثانية وجه تجمل الكنيسة من أسفلها إلى أعلاها والنافذة من الجوانب الخارجية مزينة منقوشة من داخلها وخارجها بشعارات من الحجر زينت بالزجاج وفوق الأبنية نافذة عظمى مدورة يسمونها الوردة وهي أيضاً تحملها مخارم على شكل الورد وليس تستوي تحملها إلى النبي في دورتها باقة من أوراق معمولة من حجر .

نقش الكنيسة كلها من داخلها وخارجها نقوش من الحجر فمنها ما هو على الزجاج والنوافذ فوق الأعمدة وفي طرف الرواق وفي جميع طبقات فيه الحرس ومقدم البناء . والقدماء النقاشون فقدوا يصنعون تزيناتهم فكانوا يرسمون أوراق الحجر على مثال نباتات البلاد مثل الكراس والفرسيج والحسك والورد وغيرها منسوخة من الطرف وتماثيل القديسين التي تزين الأروقة والكوى والمشاهد المصورة فوق الزجاج مشهورة بما فيها من الحياة والدقة وتماثيل الميازيب حيوانات خيالية وشياطين غريبة الصور أو شمها ممتدة في الفضاء وكل ذلك اختراع غريب مستفيض . وصار الحفر ولا سيما في القرن الخامس عشر كثيرا ما يكون من إفراط النقش وقد بدأت هذه الطريقة في البناء نحو منتصف القرن الثاني عشر في أراضي الملك من أملاك ملك فرنسا (ومن أقدم كنائسها كنيسة سان دني ونويون) ومن هناك انتشرت في أنحاء فرنسا كافة ثم في سائر بلاد أوربا وكانت هذه الطريقة هي المعول عليها منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر في كل من فرنسا وألمانيا وانكلترا . وأخذ المهندسون الإيطاليون في القرن السادس يعودون على مثال القدماء فاحتقروا طريقة هندسة أواخر القرون الوسطى زراية شديدة ولما كانوا يحتقرونه بمثابة اختراع البرابرة الذين داهموا إيطاليا وهم القوط فقد سموه القوطي وبقي هذا الاسم يتحكم على هذا الطرز من البناء بطلانا عليه . وليس من ينكر اليوم أن الهندسة القوطية هندسة متينة وانها في أجمل كنائس القرون الوسطى مثل كنيسة نوتردام دي باري وكاتدرائيات ريمس ولاون وأميين وبوفيه وكولون وستراسبورغ ومدن أخرى كلها كنائس قوطية .

الخزف [illegible] – استعملت القشرة [illegible] التي [illegible] ثم استعملت في الآنية الأخرى [illegible] في القرنين الرابع عشر والخامس عشر خصوصاً بعض [illegible] الذين [illegible] الزخارف [illegible] ولا [illegible] من هذه الآنية [illegible] إلى اليوم [illegible] [illegible] [illegible] هذه الآنية [illegible] [illegible] [illegible] تظل في العادة على [illegible] من [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] في [illegible] .

الخزف [illegible] [illegible] الاستعمال [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

[illegible] – [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الذي [illegible] لا [illegible] كل ذلك [illegible]

صناعة قائمة العطف ومحاكمة الطليعة والاتجاه قوى ليعلو الى السموات العلى . ومن هنا نشأ هذا الرأى الشائع وهو أن الهندسة القوطية هي نتيجة سامية لعصر متأثر تعلقه الحاحه الى الاستهانة . ويقول بعض أهل هذه الصناعة ان هذه الهندسة على العكس تمتاز بنظامها المعقول وترتيبها المدقق في أطرافه وعطفاته والتأثير التام الذى يحدثه تأثير حياة قوية رائقة فيها البهجة والأنس .

﴿ التوسع في الحريات السياسية وارتقاء الطبقات النازلة ﴾

تحرير المدن

• حكومة التحرير — معظم مدن فرنسا قرى قديمة (١) يملكها أحد السادة في ما يشتمل من أملاكها مثل (عبيل) (المدينة) أو فيلا معناها العقبة حتى ان المدن التى ترتقى بعهد تأسيسها الى الرومان قد سقطت في أيدى أساقفتها (مثل أمين ولاون ونوبون) أو في يد الملك (مثل أورليان وباريز) أو في أيدى بعض الأمراء (مثل المدن التى كانت لكونت دانجو وبوردو للدوق اكتين) فيحكم السيد أو وكيله فيحكم كما يحكم سيد على سكانه فيكرههم على أداء المال ويقضى بينهم ويحكم عليهم ويأخذ منهم غرامات أو يعاقبهم بدون سبب لأنه كان القاضى فيهم وحده . وكانت المدن في القرن العاشر حقيرة صغيرة لا تمتاز عن القرى الا بأنها محاطة بسور .

عدا السكان في القرن الثانى عشر أكثر عددا فاتحدوا يرغبون في النظام الرتيب وأخذ بعضهم يشفعه بعضا الطاعة أو مداراته مدة طويلة يتوصلون الى الارتقاء من سيدهم وعودا يسجلونها في صك ، وكان السيد يقول في أول الصك انى أبطل الحيف التى أصبح أهل مدينتى العادات الاتية ووقعت ان يدفعوا الى من الآن فصاعدا المال الفلانى كل سنة في وقت كذا وأقسم بأن لا أقاضيهم الا بقانون . وجرت العادة في هذه الصكوك أن يتضمن قائمة الغرامات مثل قولهم من يضرب غيره بجمع كفه يؤدى الى ٣ سولات غرامة ومن يلطم رجلا يؤدى خمسة وإذا سال دمه فسبعة ومن يستل عليه سيفه أو حسامه الذى أنه يضرب بها يؤدى ٦٠ سولا وإذا ضرب فعشر ليرات ومن يعض على غيره يقضى

---

(١) من زهاء ٩٠٠ مدينة فرنسوية تكاد تكون ثمانون منها من المدن الرومانية القديمة

أجيره ويشتغل ٧ سنوات [illegible] ويشترط أيضًا ألا [illegible] الدم الذي يجري في [illegible] وأن الأولاد في سن الثانية عشرة [illegible] [illegible] أن [illegible] أي نحو يريد أن [illegible] من كل [illegible] وتلك الصورة التي عرف بها [illegible] في القرن [illegible] عشر [illegible] هذا العهد الذي [illegible] بين المدينة وسيدها [illegible] من الألفاظ [illegible] مرة واحدة في السنة فقط إلى سيدهم [illegible] سوى غرامة معينة [illegible] العامة التي [illegible] في [illegible] نحو سيدهم [illegible] في أواخر القرن الحادي عشر في مدن [illegible] وفي [illegible] من فرنسا [illegible] التجار الذين [illegible] القرن الرابع عشر [illegible]

[illegible] الشكل وأرباب الصناعات والعامة [illegible] من الذي [illegible] أي شكل مدينة [illegible] وهم محافظون [illegible] الشروط التي [illegible] وهذه الشروط [illegible] من الحقوق [illegible] على [illegible] في [illegible] كل واحد [illegible] ولا [illegible] منه [illegible] من [illegible] أن [illegible]

علامة على حقها كما كان لها خزانة تضع فيها ماليتها ووثائقها وبرج فيه جرس تدعو به سكان المدينة إلى حمل السلاح (والمرقب هو كبرج الحرس عند سكان الشمال) ومجلس بلدي أي دار يجتمع فيها رجال المدينة وهي مجلس الرجال الذين يحكمون المدينة .

رجال المدينة — يتألف رجال المدينة من أعضاء المدينة فيكونون تارة أربعة وأخرى اثني عشر فأربعة وعشرين وأحيانا يتساوون في العدد وبرأسهم رئيس في الأحيان فيدعون في الجنوب القناصل وفي الشمال شيوخ البلاد أو مشايخ الحرف أو الحكام يختارون من أشراف المدينة وكثيرا ما ينتخب بعضهم بعضا ويتوارثون الحكم أبا عن جد ولم يفكر أحد قط في القرون الوسطى أن يطالب بالمساواة سواء كان ابن المدن أو من الأشراف . ولهؤلاء الأشراف على السكان سلطة مطلقة فهم الذين يقضون في الدعاوى ويحكمون على المجرمين ويجبون الخراج ويحفظون مفاتيح الأبواب ويمدون السلاسل في الشوارع وقت الخطر ويقرعون جرس المرقب وعلى صوته يجتمع السكان [illegible] مسلحين بأسلحتهم ويقفون طوع إرادة رؤسائهم وعليهم أن يحضروا أيضا في المجلس الأعظم في الساحة وفي القرية أو في الكنيسة للمفاوضة في المسائل العامة ولا سيما لاستماع قرارات رجال المدينة .

العدل البلدي — ليس لابن المدينة أن يأخذ حقه بسلاحه كما هو شأن الفارس بل عليه أن يعهد إلى رجال المدينة أو نائب السيد ليعيدوا إليه حقه المهضوم وذلك في محكمة أبناء المدينة ويتقيدوا في هذه المحكمة بأحكام العادة القديمة فالطالب أو قريب المقتول يقف موقف المدعي فيبين الجرم ويركع على الأرض ويضع يده على ذخائر القديسين ويقسم أن ذلك الرجل ارتكب الجرم ويحلف المدعى عليه العكس كله . وقد تقضي المحكمة أحيانا عليهما بأن يتبارزا بالعصي ومن غلب منهما يحكم عليه . وإذا أتى المدعي بشهود يجب على كل منهم أن يقسم اليمين ويردد الكلمات ذاتها من أن المدعى عليه مجرم وإذا حلف شاهدان حكم على المدعى عليه ومن الصعب إيجاد شاهدين كل حين إذ يطلب من الشاهد أن يكون قد رأى المجرم يرتكب جرمه بعيني رأسه .

يجري كل ذلك علنا وأحيانا في العراء ولا يسجل شيء مما يجري فعند [illegible] الإثباتات تستند المحكمة [illegible] علنا وهو [illegible] بحسب الطريقة التي [illegible] المشترع

وكانه وأوربا) الكل على حقه .

ولقد كان من أمر تحررهم استعبادهم وحريتهم وقضت العادة بأن كل عبد يستطيع أن يحرر رقبته على شرط أن يخلع طاعة سيده والسيد يحتفظ بالأرض ويجب عليه أن يطلق سراح خادمه .

معاهد انكلترا في القرون الوسطى

السكسونيون — كان يحتل جنوبي بريطانيا العظمى منذ القرن السادس أناس من الغزاة الجرمانيين سكسونيين وانكليز هؤلاء القوم كانوا يأتون من سهول ألمانيا الشمالية الواسعة المخصبة (المهد بالشباب) الداخل بالمرء هذه الأرض مسلحين عصابات مع أمرائهم وقد أبادوا الشعوب القديمة أو طرحوها الى أطراف البلاد الى جبال كورنوال الشاهقة و بلاد الغال وكانوا من الجرمانيين الخلص شقر الشعور زرق العيون ضخام الأجسام . مفتولي العضلات بيض الوجوه متأنقين أكلهم عظاما في حروبهم يقضون الليالي الطويلة (في قصور ملوكهم أربع وجبات من الطعام كل يوم) ويتجردون من ثيابها ويشربون شراب العسل ملء أوانيهم لا يتعاطون شراب العسل الخمر الذي يسكر أقوى الرجال وحتى طعموا يتغنون بملاحم محاربيهم ويحيون الحروب حتى انهم قد تنصروا ايضا كانوا يحبون الخوذة والأسلحة بأيديهم . قال الدوق دي نورثومبرلاند وهو على فراش المرض الذي عاش طول حياته اذا لم أمت في الحروب التي حضرتها فلا اموت كما يموت البقر ضموا الى درعي وسيفي وخوذتي وترسي وفأسي المذهبة حتى أموت كالمحارب البطل وهو في حالة القتال

ولقد كانوا يقتلون سكسونيين مع سكسونيين والأقرباء بعضهم مع بعض . رأينا توستي أخا هارولد في القرن الحادي عشر مغتاظا من نيل أخيه الحظوة من الملك ذاهبا الى أحد القصور الملوكية حيث كان أعد هارولد مأدبة وقتل خدمة هارولد يقطع رؤوسهم ويلقي أعضاءهم ويجعلها في أواني الخمر وشراب العسل ويبعث الى الملك يقول له : اذا قصدت الى قصرك تجد فيه زادا طيبا من اللحم المملح . وبذلك يعد رجال تلك الأحقاب شجعانا مخلصين صادقين لأتباعهم وسادتهم في ضرب السيوف الشداد على الأعداء والأولياء وقد ورد في القصيدة السكسونية الوحيدة التي أبقتها الأيام لـ

[illegible] ذات [illegible] على شبه [illegible] من [illegible] كل محرث كبيرا ، إليك مثلا [illegible] الأمة الاسكندنافية [illegible] متوحشون [illegible] ولكنهم أهل مضاء وإخلاص .

النورمانديون — كان الاسكندنافيون (الدانيمركيون والنرويجيون والسويديون) في القرن التاسع كما كان الجرمانيون في القرن الرابع أهل وثنية متوحشين [illegible] فكان [illegible] يرث [illegible] ولد واحد من [illegible] أما سائر الأولاد [illegible] العصابات [illegible] إلى بعض ويذهبون في طلب الثروة . فالشاب النورماني إذا لم يخلف له أهله ما يعيش به [illegible] العمل محلا يشرفه [illegible] الاسكندنافيين [illegible] البحر أصبحوا قرصانا [illegible] العصابة منهم في قوارب [illegible] ذات مجاديف [illegible] البحار [illegible] سقف ولا [illegible] من [illegible] العصابات ذات اليمين وذات الشمال [illegible] نحو الشمال [illegible] ايسلاندا [illegible] وأخرى في [illegible] واستوطن [illegible] هكذا كان [illegible] القرصان الشماليين [illegible] البحر البلطيكي [illegible] خلال [illegible] أكثر العصابات أن يقصد إلى البلاد التي [illegible] من المدينة مثل فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وإسبانيا [illegible] على الشواطئ [illegible] في الأنهار [illegible] إذ كانت [illegible] ويشتدون في [illegible] الكنيسة [illegible] من [illegible] الاسكندنافيين الذين [illegible] رجال الشمال (النورمانديين) وقد قامت العصابة [illegible] شمال فرنسا وكانت الولاية التي أصبحت نورمانديا [illegible] في جميع أوربا [illegible] النورمانديين [illegible] الدين المسيحي واللغة الفرنسوية [illegible] وكان هذا [illegible] من القرصان على [illegible] أكثر من [illegible] ، فكان الدوق [illegible] من قومه [illegible] الوحيد في أقاليم فرنسا الذي [illegible] فيه الحرب الخاصة وكان [illegible] من هذا القبيل قصة [illegible] الذهب الذي ظل

معلقاً على شجرة بدون أن يجرأ إنسان أن يسرقه ومع هذا فقد حفظ النورمانديون على كر الدهور بأجسامهم الصحيحة الشقراء والطباع والإقدام على الميل الذي انتقل إليهم من أجدادهم المتشرعين .

الفتح النورماندي — زعم غليوم دوق نورماندية أنه ورث من تاج انكلترا [illegible] الحق في ذلك وبعث إليه البابا بعلم مقدس فجمع جيشاً قوامه نحو ستين ألف [illegible] ليسترد مملكته وكلهم من الفرنسيين ووعدهم أن يعطيهم أراضي وبعد أن كسرت في الوقعة أهل انكلترا [illegible] ونزلوا يمولون أنفسهم ويسكنون بيوت الانكلوسكسونيين الذين حاربوه ويحلون في أملاكهم ويأخذون بالقوة بناتهم أو أراملهم وهكذا يصبحون أرباب أملاك وشرف (وهذا ما دعي فتح انكلترا) وأصبح بعد ذلك معظم الأشراف والأحبار فرنسيين ولم يحتمل الأشراف الانكليز إذ كانوا يحتقرونهم إلى أن يتكلمون بالفرنسية ويعيشون عيش فرسان الفرنسيين فيبعثون بأولادهم إلى نورماندية ليتعلموا اللغة وقضوا أن لا يتكلم في المدارس إلا باللغة الفرنسية أو اللاتينية وبقيت اللغة الفرنسية مدة ثلاثة قرون لسان الملك والبلاط والأشراف والقضاة وظلت الحال على هذا المنوال إلى أواخر القرن الرابع عشر واليوم يؤلفون قصائد فرنسية وقد افتخر شاعر بقصد القصيد باللغة الفرنسوية ثم ارتكب من غلطات اللسان [illegible] كما جرى من [illegible] الانكليزي .

الملكية — حكم الملوك الجدد مملكة انكلترا كما حكموا دوقية نورمانديا بالنظام والترتيب رأساً بأنفسهم واختاروا يستخدمون أمراء مملكتهم واختار الملك أناساً من الأشراف (البارونات) يطوفون البلاد طولاً وعرضاً يبحثون عن الأراضي ويسجلون جميع أملاك الانكليز ليعين لكل واحد كيف تقسم الدار ومن يملكها ولكل بيت من الأراضي والعبيد والعامة والأحرار والخراج والمروج والمراعي والطواحين مع أثمانها كلها فكان ذلك كتاب [illegible] وبفضل هذا الإحصاء العام استطاع أن يعرف الملك قوته ومن هو الشعب الذي يملك طاعته وذلك من الشروط الضرورية في الحكم على ما أرى [illegible] نورمانديا وانكلترا إن كانا في القرون الوسطى [illegible] كل الناس حر (لا كان السادة من الباباة على جميع الرجال) وقسم البلاد

أن يعارض أوامره ويحمي شخصه من اعتداء العدو، واستطاع الملك بهذه الطريقة أن يجمع في جيشه جميع فرسان إنكلترا.

وقد استخدم الملك في كل مقاطعة من التي قسمت المملكة إليها [illegible] بالإضافة إلى البارونات، وأحدث في القرن الثاني عشر نظام قضاة جوالين. وكان لدى الملك مجلس يبت في المسائل الكبرى، وقضاة يفصلون في المسائل الخاصة بمالية الملك، وتسمى هذه المحكمة محكمة الملك، وقضاة ينظرون في حساباته [illegible] (وكان هؤلاء هم قضاة الخزانة سموا كذلك لأنهم كانوا يجلسون حول منضدة مغشاة بقماش على صورة رقعة الشطرنج) وكان المستشارون والقضاة ونواب [illegible] ([illegible]) يعينون ويعزلون من قبل الملك، ولم يلق [illegible] من مواليهم أن يسيطروا على أعظم السلطات وأن يطيعوهم في شئونهم وأن يحكموا عليهم ويخضعوهم لسلطانهم كما كان شأن أشراف فرنسا. ولكن من كان منهم [illegible] في إنكلترا [illegible] لا يزيد على [illegible] يده كما لا يقتضي سلطان الملك، ولم يكن في عهد أحد من ملوك أوربا مثل هذا النظام ولا ملك أقوى كل هذه القوة.

السادة الإنكليزية — قسمت إنكلترا إلى مقاطعات كبرى يقوم على رأس كل منها [illegible] وتسمى كل مقاطعة منها [illegible] وكان السادات الذين يملكون [illegible] والإنكليزية [illegible] بيوت محكومة في [illegible] وكان [illegible] من [illegible] إلى [illegible] وكانت هذه البيوت [illegible] في إنكلترا [illegible] [illegible] بحكم [illegible] [illegible] إنكلترا [illegible] [illegible] [illegible].

وقد [illegible] في [illegible] الذي [illegible] كل واحد [illegible] [illegible] على الحروب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

انكلترا منذ القرن الثاني عشر بدون خدمة الجندية وطاعة الملك فيها ضربا من ضروب السخرة الشاقة وقد دعت الحال إلى أن يحمل الملك أرباب الأملاك أن يجهزوا بجهاز الفرسان وما فرض عليهم أن يشتروا منه أنفسهم بدفع مال بدلي عن الخدمة ففضل أكثرهم مقترحه وتخلص أكثر منهم. وفي سنة (١٢٧٨) أصدر الملك قيأمره إلى نواب قومه بأن يكرهوا جميع الرجال الذين يتجاوز دخلهم عشرين جنيها انكليزيا على الدخول في نظام الفرسان. ويدل هذا على كثرة رغبة الناس فيه في فرنسا كان مزهودا فيه كل الزهد في انكلترا فيكتفي هنا أشراف الانكليز أن يظلوا من حملة السلاح (سلاحدار) يعيشون في القلاع متوفرين على حرث أراضيهم وما من فرق بينهم وبين صغار الأحرار، في حين كان في فرنسا لمن يريد أن يكون شريفا أن يكون من نسل أب شريف أما في انكلترا فيعد شريفا كل من كان له دخل كاف ليعيش في رفاهية مثل المزارع الذي ألحق بصنيع شريفا، ولم يكن من فرق بين أشراف الحقول في القرن الخامس عشر وبين صغار أرباب الأملاك غير الثروة ولهذا لم تصبح النبالة الانكليزية طبقة لا يدخلها غير أهلها مخالفة لسائر الطبقات كما في فرنسا

العهد العظيم — كان الملك في انكلترا قويا والأشراف ضعفاء وهو على يقين بأنه ما من رجل من رعاياه يستطيع أن يقاومه ولذلك سيء استعمال قوته فضغط الأشراف لمصلحته بالمال وغصب منهم أراضيهم لاغلاطهم وسلبهم وسجنهم من دون سبب وعدمهم بلا محاكمة. وقد شوهد رجل يقتل لأنه ضرب أيلا كان في غابة الملك. ومضت طريقة الحكم قرنا وقضايا على هذا المنوال والنبلاء الأحرار والبارونات في غاية من الضعف بحيث لم يستطيعوا معه أن يقاوموا منفردين إلى أن اشتركوا ليقاوموا تلك القوة يدا واحدة فاغتنموا الفرصة التي كان فيها جان ملكا في حرب مع ملك فرنسا وحاجته ماسة إلى مساعدتهم فهددوه سنة ١٢١٥ بالخروج عليه حتى أكرهوه أن يقسم لهم أيمانا غلاظا أن يحترم في المستقبل جميع ضروب الحرية أي حقوق الرجال الأحرار في مملكته. وكتبت وعوده في عهد دخل في ٦٣ مادة ختمه الملك بخاتمه وكان هذا هو العهد العظيم الرشد والوثيقة التاريخية الرئيسية منه لا يوجد مثل حديث على جميع

المملكة قبل ان يراجع مجلسها العام. لا يوقف رجل حر ولا يحبس ولا ينفى ولا يؤذى بوجه من الوجوه ولا نقبض ولا نأمر بالقبض على أى شخص الا بحكم على الاصول بين اقرانه وبحسب عادة البلاد. وهكذا تعهد الملك (أولا) ان يكف عن [illegible] الرعايا ويعف عن أخذ حاجاتهم الا برضاهم (ثانيا) ان يحترم اشخاصهم بحيث لا يجازيهم الا بعد صدور حكم على الاصول.

على ان هذا التعهد لم يخرج عن حد الوعد وما من قوة تحظر على الملك ان ينقضها وكثيرا ما نقضه الا ان الملك عاد حينا بعد حين يجدد هذه العهود (وقد جدد العهد العظيم ٣٣ مرة). وهذا القسم يتبعه الملك الجديد على الاقل الى واجبه وهذه العهود مسجلة في عهد ملكي يعرفها كل انكليزى يذكر الرعايا فيه ان لهم الحق ان لا يؤخذ مالهم ولا يوقفوا بحسب رغائب الملك. ومن هذين الفكرين تأثر مجلسان اقيما ليحميا حريتهم وهما مجلس النواب ومجلس المحكمين. فالعهد العظيم يقضي بان للملك حقوقا كما ان للامة حقوقا فهو أساس حريات انكلترا

اصل مجلس المحكمين — للملك في انكلترا الحق فقط ان يقضي في الجنايات ويحكم بالاعدام فهو يعين القضاة ويبعث بهم يطوفون مملكته. ففي كل سنة وفي كل بلد في أوقات معينة يأتي قاض من قبل الملك يؤلف باسمه مجلسا بحضرة الاحرار والاشراف وسادات الكورة ويسمونه مجلس قضاء الجنايات (وقد حفظ هذا الاسم وانتقل الى الامة الاميركية) فينظر القاضي في الدعاوى والجنايات التي ارتكبت في المملكة ويستدعي اثني عشر رجلا شريفا ويحلفهم ان يقولوا الحق فيما يعرفونه ويبدأ التحقيق ليكشف الغطاء عن الحقيقة ويسألهم اى المدعين محق في دعواه اذا كان المدعى عليه مجرما أو بريئا فيحكم في مسائل الجنايات بموجب أجوبتهم على الخصمين وكان يسمى هذا الضرب من الحكم التحقيق البلدى (١) والاثنا عشر رجلا من الفرسان الذين أخذت آراؤهم يسمون المحلفين او المحكمين وهكذا نشأ مجلس المحلفين (ولم ينظر اولا الا في القضايا المتعلقة بالاملاك ومنذ القرن الثالث عشر أصبح ينظر في

---

(١) أسمه مجلس المحلفين بادىء بدء مجلس التفتيش البلدي واسمهما واحد وهو التفتيش واذ كان عمل المجلس مختلفا أصبح الاول مجلس حرية والآخر مجلس اضطهاد

المسائل الجنائية) وقد اخترع القضاة هذا المجلس لتسهيل عملهم فكان أعظم ضمان من ظلم القضاة لانه يطلق الحكم على المتهم للوطنيين . ومجلس المحلفين الآن أوضاع التي يعجب بها في انكلترا أخذه جميع أمم أوروبا تقريبا

مجلس نواب انكلترا — كانت الاموال التي تجبى للملك من أملاكه والغرامات التي يتقاضى باسمه تكفي لنفقة داره والادرار على رجاله واذا نشبت الحرب لا تعود تكفيه مالا فيكتب الى جميع أرباب الشأن من أمته ويستدعي الأساقفة والبارونات برسائل خاصة فيجتمعون لديه ويقررون رسما ضريبيا أي يرخص للملك أن يجبيها وكانت هذه الشورى مقصورة بادئ بدء على كبار الرجال (وهم الذين أخذوا من (جان) العهد العظيم) وفي أواخر القرن الثالث عشر سمح لكل مدينة وقصبة أن تبعث برجلين من أبنائها ولكل مجلس مديرية أن يرسل فارسين يختارهما وأمسى هؤلاء النواب أولا لا يسمعون الا ما يقرره كبار السادات ليحملوا خبره الى بلادهم ثم قبلوا بالدخول في المناقشة . وقد سمي هذا المجلس الكبير بالبرلمان (مجلس الشورى) ولا يستدعيه الملك الا ليسأله تقرير الجباية على ان العادة جرت بأن البرلمان قبل أن يمنح الملك ما يريد يعرض عليه شكاويه وكثيرا ما يسأله اصلاح ادارته أو عزل عماله . وهذه طريقة في الحكم مستنة وحاول البرلمان مرات أن يحمل على الملك رقباء الا ان هذا تخلص منهم وما ثبتت العادة في ذلك الا في اليوم الذي اعتادوا الاستئناس بمكان ان الواجب على الملك كل سنة أن يجمع المجلس .

مضى زمن طويل والسادات الاساقفة يدعون وحدهم فقط وقلما كانوا يعقدون على انفراد و يتألف منهم مجلس اللوردات (السادات) وفرسان الكونتيات ورسل المدن الذين تبعث بهم البلاد يؤلفون مجلسا جديدا وهو مجلس العموم (النواب) . وأدى هذا النظام الى جمع شؤون الشكاوى فضلا من أن يتحد صغار الاشراف مع كبارهم للمقاومة الملكية الوسطى (كما حدث في فرنسا) قد اتحدوا على العكس مع أهل البورجوازية فيؤلفون مجلس النواب وفي خلال حرب الوردتين أفنى بعضهم بعضا بحيث انه لم يبق سنة ١٤٨٦ غداة تولي أسرة تودور زمام ملك انكلترا سوى ٢٥ لوردا وأحدث الملك لوردات من جديد الا ان الجدد منهم لم يحرزوا ما كان للقدماء من

[illegible] — وأخذ مجلس النواب في القرن السادس عشر [illegible] شؤونه بنفسه [illegible] من السلطة. هكذا كان مجلس نواب الكامنز الذي [illegible] وحده [illegible] الإنكليز [illegible] من [illegible] من الاستبداد الملكي [illegible] البرلمان هو من الأوضاع [illegible] جميع الأمم [illegible] الشرف [illegible]

الأمة الإنكليزية — [illegible] السكسونيون والنورمانديون [illegible] في القرن الخامس عشر [illegible] الأمة الإنكليزية [illegible] شعبين متباينين أصبحت [illegible] لغة واحدة جديدة وهي لغة الإنكليزية [illegible] أصلها اللغة السكسونية [illegible] وهي لغة الشعب [illegible] الألفاظ [illegible] يتكلمون بها إلى اليوم [illegible] اللغة الفرنسية لغة [illegible] ألفاظ [illegible] ومصطلحات في الحقوق والسياسة والفلسفة ([illegible]) [illegible] إلى [illegible] السكسونية

ولما كانت الأمة الإنكليزية في أواخر القرن الخامس عشر [illegible] البحر والتجارة كما هي اليوم [illegible] كانت [illegible] [illegible] عشرة آلاف [illegible] الإنكليزي [illegible] الإنكليز [illegible] [illegible] الإنكليزية [illegible] [illegible] الإنكليزية [illegible] [illegible] الإنكليز [illegible] [illegible] الإنكليز [illegible] في [illegible] [illegible]

أما في فرنسا فلا يشاهد سوى ستة أو ثمانية من اللصوص ليس لهم من الجرأة الا ما يستطيعون معه ان يسرقوا ثلاثة أو أربعة من أهل الفرض ولذا كان المحكوم عليهم من الرجال في انكلترا خلال سنة بدعوى اللصوصية والقتل أكثر مما كان في فرنسا محكوماً عليهم منهم بمثل هذه الجرائم مدة سبع سنين . ولذا احتاج هؤلاء الانكليز حاجة للانقلاب الى الاستقلال. قال هذا المؤلف عينه: ان الملك لا يستطيع ان يحكم على هذه الشعوب بغير القوانين التي أقروا هم عليها ولذلك لا يستطيع ان يجبي منهم ضرائب بدون رضاهم. ثم قابل بين رفاهية الفلاح الانكليزي وشقاء الفلاح الفرنسوي فقال ان كل ساكن في هذه المملكة يتمتع بالثمرات التي تأتيه بها أرضه وماشيته يستعملها كما يشاء وما من أحد يحول دونه ودون الاستمتاع بها اغتصاباً ولا يطلب قط الى التقاضي الا امام القضاة العاديين وبحسب قانون البلاد ولذا أغنى أهل هذه الديار فملكوا الذهب والفضة وجميع الحاجيات فتراهم لا يشربون ماء بتاتاً اللهم الا ان يكون ذلك على سبيل التوبة ويطعمون لحوماً وأسماكاً بكثرة وأقمشتهم من جيد الصوف فهم أغنياء بأثاثات بيوتهم وبأدوات الزراعة وفي كل ما من شأنه ان يجعل الحياة رغيدة

مدن القرون الوسطى

الفتح الالماني — غزت الشعوب الجرمانية بهجرتها الى الغرب لتدخل الى الامبراطورية الرومانية عن بلاد الشرق شعوب من عصر آخر وهم السلافيون (الصقالبة) حتى لقد عدت جميع البلاد الواقعة شرقي الالب ملكاً للقبائل من السلافيين وقد عاند القديس بونيفاس حتى على شواطئ الفولدا أناس من السلافيين هزؤا منه وسخروا وبقي ما وراء ذلك من مستنقعات شواطئ بحر البلطيق شعوباً قديمة (كالبروسيين والليتوانيين والفيلنديين) وهذه الشعوب وثنية محاربة ولكنها رديئة السلاح منقسمة الى قبائل لا قبل لها بالمقاومة فشرع الالمان في تنصيرهم والتغلب عليهم وأنشأ ملوك جرمانيا بلاداً على التخوم وأطلقوا لقوادها حرية الحكم كما يشاؤون ومن هذه البلاد نشأت الثلاث الامارات الالمانية الرئيسة وهي امارة براندبورغ شمالي مملكة بروسيا والمارقميسني وسط مملكة الساكس والامارة الشرقية في جنوبي مملكة النمسا وأسسوا أيضاً أسقفيات بعثت من قبلها مرسلين

أخذ الشعوب [illegible] (من القرن السادس الى الثاني عشر) [illegible] بالمسيحية أمراء [illegible] في معظم البلاد [illegible] وحطموا الأصنام وأكرهوا رعاياهم على قبول الدين المسيحي وقتلوا من [illegible] في [illegible] وبقي السكان في تلك البلاد [illegible] (١) [illegible] هذا الأمر [illegible] الكنيسة [illegible] الأسباب [illegible]

وعلى [illegible] بعض الشعوب في الشمال [illegible] (١٠٣٦) [illegible] الألمان [illegible] روسيا [illegible] والأولاد [illegible] في الألمانية [illegible] كذلك [illegible]

الاستعمار الألماني — كانت السهول [illegible]

---

(١) [illegible]
[illegible]
وأصبح زعيمهم ملكا على [illegible]

وعند شيخ البلد في أرض ملأى بمعادن يجد ما يوزع كل ما حصل على السكان ما يحتاجون إليه من المال فاستدعى أمراء الألمان والسلافيون من ألمانيا فلاحين وأرباب صنائع(١) يأتون أن يحيوا ويزرعوا هذه الأرض واستثمار الغابات وتأسيس مدن وأنشأ الألمان يهاجرون عن أوطانهم خلال قرنين وأتت ألوف من الأسر الألمانية تتوطن في عقار الشاسعة من الشرق كما يذهب الناس في أيامنا لاستيطان صحارى أميركا الشاسعة. فكان الأمير يبيع من أحد المتعهدين قطعة من غابة أو طريدة من الأرض تكفي لإنشاء قرية فيجلب المتعهد فلاحين ويوزع عليهم الأراضي حصصاً حافظاً لنفسه مالاً يجبيه في أوقات معينة فيكون حاكمهم الوراثي إلا أن الفلاحين يبقون أحراراً لأنهم هم الذين أحيوا موات الأرض ويحتفظون بعاداتهم الألمانية. وإذا أريد تأسيس مدينة يحفر لها المتعهد خنادق ويحوطها في جهاتها الأربع ويؤسس فيها سوقاً ويحفظ لنفسه الحق أن يأخذ منها رسوماً. جرت هذه الأعمال الكبرى على مهل تحت طي الخفاء ولقد شغل مؤرخو تلك الأيام بذكر حروب الأمبراطورة ولم يفكروا في أن يعنوا بالصورة التي جرت في تأسيس ألوف من القرى ومئات من المدن في براندبورغ وبوميرانيا وبروسيا وسيليزيا وبوهيميا، ومئات في الجهة الأخرى من نهر الألب ألمانيا حديثة ألمانيا المستعمرين والحدود ألمانيا الشرقيين والبروسيين الذين كان لهم فيما بعد أمر جميع أمم ألمانيا القديمة.

المدن الحرة — أسست المدن الرئيسة في ألمانيا حول قصر الملك (٢) أو حول بيت أسقف (٣) وأمير المملكة أو الأسقف سيد المدينة والتجار مستأجروه لأن أرض المدينة ملكه وأرباب الصناعات عبيده يعملون له ورجاله وفرسانه وخدامه يحكمون على الصناع والسوقة، وكانت الشعب يتظلم من السيد عن الطرق سوى الشكل حتى البيت الذي له أن لا يتناول سوى رسوم مقررة من الصناع أخلاف السيد

---

(١) وجماعات هؤلاء هم الذين أنشأوا وسدوا وحفروا المالح في طول الألب والأودر

(٢) مثل اكس لاشابل وفرانكفورت

(٣) مثل كولون وستراسبورغ وبال وهمبورغ وبرم وغيرها

لم يعد في المدن سوى رجال أحرار مثل التي زاد عددها في القرن الثاني عشر ففي من أملاك الأساقفة مثلا في الشمال الألماني حتى جلس التجار في ظل الحكم فيجتمع الأسقف وخدامه وأهل التجار في مجلس لحكمها جميعهم ولكن هذا المجلس سمي مجلس الأسقف. ولما قوي نفوذ المدن في القرن الثالث عشر وطردت الخدام أصبح ذلك المجلس مجلس المدينة وغدت له سلطة أمير فتملك حق سك النقود وفرض الضرائب ويخاطب الامبراطور مباشرة وتسمى المدينة مدينة حرة (١) لأنها لا تخضع لسيد.

الصناعة — قسم الصناع في المدن طوائف عديدة مثلما كان بيت الأسقف مقسما له ولرجاله وكل طائفة تتألف من صناع يحترفون حرفة واحدة ويخضعون لأحد خدام الأسقف ويسمى معلم (أي خادم) أو رئيس أو كبير الحرفة أو شيخ الحرفة وذلك مثل حرفة الحدادين وحرفة السروجيين ولكل منهم نظامه الخاص بهم ومن هنا اشتق اسم صنعة (٢) الصنعة الذي تطلقه عليها وأصبح أرباب الصناعات أحرارا بالتحرير فضلا عن أن يصنعوا لسادتهم ثم صاروا يصنعون لحسابهم ويبيعون مصنوعاتهم في السوق بصفتهم منتظمين طوائف بحسب الحرف ويتألف من كل حرفة جماعة لها صندوقها العام ونظامها الذي تسير به في الاحتفالات ويرأسونه إذا تحركت المدينة مثال ذلك جماعة النساجين في باريس ونقابة القسس وكثيرين غيرهم كانوا رؤساؤهم من أهل الصناعة نفسها ويسمون فيه حراسا أو أمناء ولهم نظامهم وبحسب عادة القرون الوسطى كانت عادات لا قاعدة مكتوبة وفي فرنسا دونت عادة صناعات باريس الأولى أواسط القرن الثالث عشر بهذه القوانين الشروط التي يجب على المرء في هذه الصناعة. وهذا أيضا لم يكن حرا في أي عمل في الصنعة تبعه عامل صناعة

---

(١) أصبحت مدن الأساقفة المدن الحرة وأهمها الست المدن على الرين كولونيا وماينس وورمس وسبير وستراسبورج وبال. والمدن التي كانت تتبع الامبراطور تسمى المدن الحرة الامبراطورية وكانت مستقلة أيضا مثل نورمبرج وأولم وأوجسبورج

(٢) أشبه بطوائف الصناعات في أيامنا ونظامها في المدن الألمانية ولكنه أقل نظاما.

ويعلمه ويؤويه فالخريج يعمل لحسابه ويخضع له وللمعلم الحق أن يضربه وبعد بضع سنين يصبح الخريج رفيقا ولا يزال يعمل باسم معلمه وله أن يغادر معلمه ويذهب الى غيره فالرفقة هم أناس متنقلون وكثير منهم يتنقلون من مدينة الى أخرى يعرضون على أرباب الصناعات أن يشتغلوا معهم وبقيت هذه العادة فى فرنسا جارية فى تنقل صاحب الصنعة في أطراف البلاد . ومن كانوا على شيء من الغنى يفتحون حوانيت ويصبحون معلمين ولهؤلاء فقط الحق في أن يعطوا آراءهم في مجلس أهل الصناعة وتعين القوانين كيف يجب العمل ويحظر على العامل أن يشتغل في غير دكانه وبذلك يتيسر للجمهور أن يراقبه. ويحظر عليه أن يعمل على نور المصباح لئلا يعمل عملا رديئا ويمنع من استعمال مواد أخرى أو عمل أشياء تخالف العدد الذى أمر به القانون فالصياغ مثلا لا يعملون الذهب بالفضة وصناع التماثيل لا يستعملون الا أخشابا مخصوصة من الخشب واذا كان ثوب الجوخ أكثر أو أقل عرضا من القياس المقرر يصادر ويغرم بائعه ويحفظ أهل الصنعة شرفهم وشرفهم أن لا يبيعوا الا بضائع حسنة السرد والتقدير ولذا يجب أن يراقب بعضهم بعضا أشد المراقبة ثم انهم يتعهدون بعضهم بعضا أمام الغرباء وأمام سائر أرباب الحرف وليس لاحد فى المدينة الحق أن يصنع سلعة أو يبيعها الا معلمو الصناعة فيغرم كل رجل يفتح دكان خياط قبل أن يقبل فى صناعة الخياطين وتغلق دكانه لأن حق عمل شيء من الصناعة وبيعها ملك خاص لأهل تلك الصناعة فالخياطون يتهمون باعة الخلق (الأسمال) الذين يبيعون ثيابا جديدة لأن لهم وحدهم الحق فى ذلك وما على باعة الخلق الا أن يبيعوا ألبسة عتيقة وصانعو اللجم يقاضون السروجيين ليمنعوهم من عمل اللجم وذلك لأن صناعات القرون الوسطى كانت تحاذر من المنافسة كثيرا .

وأهم أرباب الحرف هم الخبازون والقصابون والحاكة والصباغون والبناؤون والدباغون وصانعو الأسلحة والنجارون وعدد الصناعات متوقف على مكانة المدينة وليس فى كثير من المدن الالمانية سوى ١٨ او ٢٠ صناعة وكان فى باريز زهاء مئة حرفة وذلك لأن عدة صناعات مختلفة يمكن جمعها فى صناعة واحدة أو انه يتيسر تجزئة الصناعة الواحدة الى عدة حرف (فى باريز ثلاث حرف لصنع السبحات)